

## نقد الشعر في تفكير حازم القرطاجني البلاغي

الأستاذ دكتور العربي عمّيش

جامعة الشلف الجزائر

### الملخص:

ينطلق حازم القرطاجني في تصور نظرية عروضية من حسّ بلاغيّ واضح المعالم ، وقد ظلّ يرجع إلى الذوق والحسّ والطبع في كلّ تفسير نقديّ تناول فيه مسألة وزنية باعتبارها مرجعيات انفعالية غدّت التفكير البلاغيّ منذ أوليات الانفعال بقيم اللغة العربية الفنية الجمالية .  
الكلمات المفتاحية : التفسير ، الفنية ، الجمالية ، الحسّ البلاغي ، حازم القرطاجني

### summary

Hazem Al-Qartajani starts from a clear rhetorical sense in his conception of a prosodic theory, and he has always referred to taste, sense, and nature in every critical interpretation in which he dealt with the issue of weight, considering them as emotional references that have nourished rhetorical thinking since the beginnings of emotion with the artistic and aesthetic values of the Arabic language.

### Keywords:

Interpretation, artistry, aesthetics, rhetorical sense, Hazem al-Qartajani

ربما كان سبب اعتماد حازم القرطاجني لتوظيف الحسّ في الوقوف على الجوانب الوظيفية لتراكيب اللغة العربية راجعا لحسه الشعريّ فهو شاعر قبل أن يكون منظرا للغة والبلاغة وجماليات اللغة العربية الفنية ، فالممارسة الشعرية تساهم في تسليح البلاغيّ بتلك الرؤية الداخلية التي يختلف في اعتمادها عن البلاغيين المعياريين ، لذلك وانطلاقا من اعتماد حازم للتجريب الإبداعيّ تمكّن من حيازة الوظيفية المنبئية على بعد نظر وعمقه خالف في كفاياته البلاغيين العرب الآخرين العدمي التجريب والتعاطي والممارسة .  
وما كان كلام حازم على الشعراء في حقيقة الأمر إلا حديثا عن ذاته الشاعرة الذائقة وقد تبلور هذا التوجّه إلى تمييز الشعراء بين شاعر مخلص لفن الشعر وآخر شاعر ناظم لا يتّصل قلبه ولا لسانه بمقتضيات التعبير الجميل ، وقد فضل حازم الكلام على القلوب المغلفة التي عميت عن رؤية حقيقة الفنّ والجمال فظلت تأتمر بسلطان

العقل ، لذلك فإن حازما لا يتوانى في نعت بعض الشعراء من الذين جانبوا مهيع الشعر "... فخرجوا بذلك عن مهيع الشعر ودخلوا في محض التكلم..."<sup>1</sup> .

يتزع حازم في توجّهه النقدي الأدبي إلى تصحيح المفاهيم والتمييز بين الإبداع الحقيقي وبين ما يلتبس به من الادعاءات والأوهام ، فكثير من المعدودين على الشعر لا يملكون من فنه التزر القليل ، وربما طغى المزيف على الأصيل وإن سبيل الشاعر في تحصيل أهلية الإبداع أن يخلص لإنسانيته وبيئته فلا يشدّ عن تمثيل المعطيات البيئية الواقعية ، ومثل حازم في هذا المقام مثل الجاحظ الذي ظلّ مخلصا لمعطيات مجتمعه وبيئته وعصره يصدر عن جميع تلك المعاشات ثمّ يحوّلها إلى قيم نظرية أو إبداعية تسهّل على القارئ طريقة تفهّم الخطاب ، وإن الذي يوازن بين مسلكي الجاحظ رئيس البلاغيين وأستاذهم بدون منازع وبين حازم القرطاجني يستطيع أن يقف على طبيعة التلاؤم أو التشاكل بين الرجلين في نقد نظرية الإبداع من حيث كان كلاهما يؤوب إلى استثمار المعاشات في استخلاص الظاهرة الإبداعية واستجابة إلى داعي التأصيل والتوثيق الذي تميّز به مذهب حازم القرطاجني النقدي الأدبي استوثق كلاهما بقراءة الواقع العملي ، فالبيان الذي يتصل بالاتصال الوثيق بحمال المنطق العربي والذي هو في نفس الوقت الهامش النظري الذي تتفاعل فيه النظرية البلاغية العربية ارتآه الجاحظ طبيعة لسانية حين قال: "... وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ... وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وإن حاجة المنطق إلى الخلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة ، وإن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب وتثنى به الأعناق ، وتُزَيّن به المعاني..."<sup>2</sup> لا تستطيع النقد الأدبي ذي الصبغة المدرسية أو مناهج النقد الأدبي التعليمية أن يفرز مثل هذه التحديدات الوظيفية إلا إذا مرّ معتقد بالمعطيات البيئية والمعاشات العملية التي كان يستفيد منها النقد الأدبي من المباحكات الجلسية والمحاورات الأدبية والسير الشعرية التي ظلت تزين البيئة النقدية الأدبية العربية ، ولا تكاد تتميّز فلسفة النقد الأدبي لدى أبي حيان التوحيدي عن هذه التي نعالجها بالبحث والتمحيص فقد كان أبو حيان التوحيدي يسلك في نقده الأدبي الجمالي ذات مسلك حازم يستفيد في نقد الشعر واللغة العربية بما يخبره من المعاشات فتأني آراؤه لينة مثمرة لاتصالها بواقع الحياة المعيشة ومثل ذلك يُكتسب من المخالطة<sup>3</sup> ولم يكتف حازم في التأسيس لنظريته العروضية بأطراح التقليدي في الموضوع وإنما تجاوز تلك العايات إلى انتقاد البلاغيين العرب القدماء فصب جام انتقاداته على فساد أذواقهم ، وقصور نظرهم في إمساس الغايات الإبداعية اللاتقة بجمالية الشعر "... ومعرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلاّ بالعلم الكلّي في ذلك وهو علم البلاغة الذي تدرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع ..."<sup>4</sup>

يستطيع الذي يفلي مدونة منهاج البلغاء وسراج الأدباء أن يقف على مدى اهتمام حازم القرطاجني بنقد الشعر دونما سواها من أصناف الخطاب حتى كأن المنهاج واقع في صميم نظرية الشعر ، وقد تسلح حازم بالرؤية الداخلية التي استفادها من واقع التجريب الإبداعي الذي تعاطاه في واقع حياته الأدبية ، شاعر متخصص في

الكلام الشعراء خبر سلوكهم وطباع انفعالاتهم ، خالطهم وتأثرهم وتدرس على تجاربهم حتى انتهت به تلك المعاشات إلى امتلاك قناعات نقدية أدبية تختص بمنهج تداولي شبيها بالتداول السري ، فالحرك إلى قول الشعر يحتاج إلى سند نفسي وانفعالي وسلوك معرفي يحكم المعاشة في الوقوف على طبيعة الوظيفة الأدبية ، فالأثر النفسي يبدو واضح المعالم في نقد التجربة الشعرية

نقد المعاني الشعرية:

يتضح لنا جليا أن حازم القرطاجي يترع إلى بسط رؤية وتسطير منهج بلاغي انطلاقا من قناعات حياتية ومعيشية يستفيد منها من خبرة الحياة ويوظفها في تقييم بلاغة الخطاب الأدبي أو الخطاب الفني على اختلاف مظاهره التعبيرية ، وهنا يترأى لنا اتفاق حازم القرطاجي مع شيخ البلاغيين العرب والإنسانيين جميعهم الجاحظ حيث ظل كل من العالمين يصدر في تقييمه البلاغي من قناعات وظيفية وإجرائية وتطبيقية يستفيد منها من الممارسة الحياتية بامتياز .

فالتناسب الذي بنى عليه حازم القرطاجي نظرية الوزن العروضي مخالفا من سبقه أو عاصره من العروضيين أو البلاغيين بالأخرى يمثل سياقاً محورياً يمكننا قراءة جميع مظاهر التعبير الفني في ضوءه ويمكننا أن نطبق هذا المبدأ النظري انطلاقاً من تحقيق الفكر في بنية التشبيه أو المحاكاة إذ يبدو لنا القيمة الوزنية متشاكلة مع البنية التشيلية أو المحاكاتية من حيث كونها قائمين على مبدأ التناسب بين طرفين مساهمين في بناء القيمة المعرفية

فالتناسب مثلما يشخصه تفكير حازم القرطاجي سار على المبصرات والمسموعات والمذوقات لتجتمع جميع هذا المرجعيات الحسية في فعل التفكير الذي سماه حازم القرطاجي : المفهومات التي التشبيه أحد تجلياتها المعرفية والتي تبدو للمتفكر في جدواها منقطعة الأثر عن القياس المادي لكونها روحية معنوية لا يمكننا التوصل إلى تحديد قيمتها إلا من خلال قراءة الأثر اللغوي الذي هو المسلك المادي الملموس الذي يقودنا إلى الوقوف على كفاءات تحققها أو تبلورها في الفعل الإنساني

يرجعنا الكلام على الأسس الجمالية للبنية العرضية إلى ما يحكى عن الخليل بن أحمد الفراهيدي فقد اتسمت أحاوله بسلوكات فنية مستغربة من ذلك أنه كان يدلي برأسه في جوف البئر مردداً الأشعار يستفيد من رجع صداها في تشخيص تركيب لغتها .

يستمد التفكير النقدي لدى حازم القرطاجي مصداقيته من تلك الشجاعة التي يتحلى بها مقابل الآخرين ممن مارسوا التفكير البلاغي متحفّظين ، فقد كان يزدرى نصيبهم من فهم المسائل البلاغية وتأخرهم عن مجارة الحقيقة أو الواقع الاجتماعي أو النفسي الذي هو بمثابة المسوّغ المنهجي الموضوع وقد يرتد تبرمه من أذواق من سبقوه حتى يبلغ مشايخ العربية أو بعض أتباعهم ،

لقد أعاد حازم القرطاجي قراءة المتواليات البنائية في موضع الوزن الشعري وهو في كل مسألة يعتمد سلامة الذوق ومطابقته لمقتضيات الحس البشري والبيئة واللسان العربي نستدل على منهجه في تذوق أوزان الشعر العرب وهو يصدر في موضوعها عن قناعة تجريبية كان حازم القرطاجي قد لمسها بناء على ما تعلمه من تعاطي

الشعر، وقد كان لعبد القاهر الجرجاني أن أثبت هذا التوجه في كتاب دلائل الإعجاز حين انتقد تدخل ثعلب في نقد الشعر بناء على قناعة من لدنه هي أن الشعراء هم المخوّل لهم تعاطي نقد الشعر ، قال: "... ليس هذا من شأن ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله ، إنما يعلم ذلك من دُفع إلى مضايقه وانتهى إلى ضروراته"<sup>5</sup>

فبذات النهج الذي سلكه حازم القرطاجني كان عبد القاهر الجرجاني يعتقد أن نقد الشعر نتاج ممارسة إبداعية، فالذات الشاعرة بما تجربته وتعرض له من مضايق الإبداع وتفاصيل التحريب والمنافسة بين الشعراء تتوصل إلى قناعات نقدية أدبية تكون مغايرة للنقد المعياري الخالي من الملامح الفنية الجمالية .

ونعتقد أن ما كان لحازم القرطاجني أن يمتدّ نقده الأدبي ليطل جانب الوزن من الوظيفة الشعرية لولا تمتعه بتلك الثقافة التجريبية التي أهلته لذوق البحور والأوزان ولذلك قد نستدلّ بهذا الجانب النقدي النادر الطرح فقد تنبه إلى الاختلال الذي اعتور رأي العروضيين من حيث كونهم بلاغيين بالدرجة الأولى فقد حمل عليهم ورماهم بفساد الذوق حين قال: "... وعلى هذا يجب أن يُتأوّل التشعّث في الجميع لأن الوند يصير بحنّ السبب الخفيف الذي قبله جزءاً من فاصلة صغرى فيُسكّن رأس الوند تخفيفاً لأن الفواصل قد يستثقل توالي الحركات فيها ..."<sup>6</sup> ،

ولم نر ناقداً للشعر توسع في نقد الجانب العروضي غير حازم الذي فسر بناءه من الوجهة البلاغة الصرفية ، ويبدو من هذا الجانب حازم القرطاجني مساهماً في إثارة النقد الجمالي الذي قل مثيله حتى في النقد الأدبي الحديث اليوم ، ولذلك تطوع في إثارة مسألة وزنية متصلة بالإيقاع هي: فاعلن فاعلن فاعلن وتحوّل في الخبب إلى فعلن فعلن فعلن ، وقد ارتأى حازم ضرورة تحويلها إلى تفعيلة جديدة قالفيها بمتفاعلتين بمعنى: فعلن فعلن وقد اقترننا لتصيرا إلى متفاعلتين.

<sup>1</sup>: حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة ، الدار العربية للكتاب ، ص:10

<sup>2</sup>: الجاحظ ، البيان والتبيين المجلد الأول :، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان 1967 ، ص:14

<sup>3</sup>: ينظر ، أبو حيان التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، الجزء الأول ، ص:7

<sup>4</sup>: حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء — ص:54

<sup>5</sup>: عبد القاهر الجرجاني ن دلائل الإعجاز، دار المعرفة بيروت لبنان ، ص:210

<sup>6</sup>: حازم القرطاجني منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص:205